ظاهرة تراسل الحواس في دواوين شعراء المعلقات العشر

م.م حنان مهدي مال الله الخفاجـــي

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي جامعة كربلاء – كلية الإدارة والاقتصاد–قسم المحاسبة

رقم الهاتف:07800320192

البريد الالكتروني:hanan.m@uokerbala.edu.iq

الخلاصـــــــــــة

يعد تراسل الحواس أسلوباً مميّزاً في نظم الشعر العربي، والتراسل ظاهرة قديمة الميلاد، فنحن نجد تمثّلاتها في الشعر العربي العائد إلى بواكير العصر الجاهليّ، تناول هذا البحث تراسل الحواس عند شعراء المعلقات العشر، بدأت بتمهيد تناول تعريف مصطلح التراسل، وأردفته بثلاثة محاور جاء المحور الأوّل إسهامات العرب في نشأة المصطلح وتطوّره، وتناول الثاني إسهامات الغرب في نشأة المصطلح وتطوّره، ثمُ جاء في المحور الثالث تراسل الحواس التحليل الفنّي للنصوص الشعرية الخاصّة بشعراء المعلقات العشر، ثُم خُتمَت الدراسة بخاتمة ضمّت أهمّ النتائج التي توصّل إليها البحث، ثم اتبعتها بفهرس المصادر والمراجع، وفي ختام هذا الحديث أقول اسأل الله التوفيق، أنّه الموفق، وأنّه نعم المولى ونعم النصير.

مشكلة البحث

أهمّ المشكلات التي واجهتني في إعداد البحث هي ضخامة النتاج الشعري لشعراء المعلقات العشر، وغرابة الألفاظ، مما اضطرني إلى العودة إلى المعاجم اللغوية لفهم ما غمض منها.

أسئلة البحث

هل وظف شعراء المعلقات العشر أسلوب التراسل الحسي بغية الوصول إلى مرحلة الصدق الشعوري، بوصفه أسلوباً له القدرة على ترجمة ما يدور في ذهن المرسِل، وله القدرة على التأثير في المتلقي؟ وهل كان لأسلوب التراسل دورٌ في منح الخطاب الإبداعي خصوصيته، ومن ثم شكّل ظاهرة أسلوبية مائزة؟ وهل كان لجميع انماط التراسل الحسي حضورٌ متساوي في دواوين شعراء المعلقات العشر؟

أهداف البحث

بناءً على ما تقدّم في أسئلة البحث تشكّلت مجموعة من الأهداف التي يحاول البحث تحقيقها، وهذه الأهداف هي:

1- رصد صور التّراسل الحسي الواردة في دواوين شعراء المعلقات العشر، وكشف سماتها الجمالية.
2- نتبيّنَ مدى فاعلية تقنيّة تراسل الحواس في انتاج صورة شعرية تفصح عن احساس مرسِلها بدرجة عالية من الصدق الشعوري، ممزوجة بلمّسة جماليّة أخّاذة مبتكرة، ومن أجل استظهار مواطن الإبداع الناتجة عن تبادل الحواس في وظائفها
3- الكشف عن سر انزياح الشاعر عن النّظم على وفق اللّغة المترسّخة إلى نمط جديد قوامه إبدال مدركات حاسّة بحاسّة أخرى.
4- إلمام القارئ العربي بمدى مرونة اللّغة العربية وطواعيتها على التّشكيل الجديد، بما يسمح لها الانتقال من لغة عادية إلى لغة شعريّة قادرة على تلبية احتياجات الشاعر النّفسية، واحتياجات القارئ من جدّة وتأثير.

أهميّة البحث

تنبع أهميّة البحث من أهميّة الشعر القديم الذي يفيض بالعديد من الصّورة الشعرية الصّادقة المؤثّرة، التي لها من الفاعليّة والقيمة الجمالية، ودور التّراسل الحسّي في خلق صور مميّزة، بصدمتها الجماليّة الإدهاشية المبتكرة، مما دفعني إلى دراسة ظاهرة تراسل الحواس في دواوين شعراء المعلقات العشر، والكشف عن مواطن الإبداع فيها، فجاء البحث تحت عنوان (ظاهرة تراسل الحواس في دواوين شعراء المعلقات العشر).

منهج البحث

إنّ طبيعة الدراسة اقتضت الاعتماد على (المنهج الو صفي التّحليلي) في استخراج الباحث للنماذج الشعرية، وتحليلها، ومعرفة الانفعال الذي دفع الشاعر إلى تشكيلها.

الكلمات المفتاحية: شعراء المعلقات العشرة، تراسل الحواس

key words: The Ten Muallaqat Poets, Correspondence to the senses

التّمهيد

التّراسل في الدلالّة اللّغويّـــة والاصطلاحية

وردَ في لسان العرب " تَرَاسَلَ الْقَوْمُ: أَرْسَلَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ"[1]

أمّا التّراسل في الدلالّة الاصطلاحيّة، فهو "وصف مدركات كلّ حاسة من الحواس بصفات مدركات الحاسة الأُخرى، فتعطي المسموعات ألونا، وتصير المشمومات أنغاماً، وتصبح المرئيات عاطرة "[2].

أوّلاً: إسهامات العرب في نشأة المصطلح وتطوّره

لقد تعدّدت الاصطلاحات والتعريفات التي أطلقتْ على هذا الأسلوب المتّبع في الصياغة، حتّى وصلَ أخيراً إلى ما هو متعارف عليه الآن باسم(تراسل الحواس)، وهذه مسألة طبيّعيّة، ذلك إنّ كلّ ظاهرة بارزة، لابدّ أنّها كانت في بادئ الأمر عبارة عن شذرات قليّلة متناثرة، يتنبّه بعضهم إلى وجودها؛ نظراً لتكرار ورودها هنا وهناك، فيصبح حضورها ملّموساً، وعند هذه المرحلة يصبح لا بدَّ من إطلاق مصطلحٍ عليها لتُعرَف به، وقد تتعدّد الاصطلاحات حتّى تستقر أخيراً على تسمية معيّنة، وظاهرة تراسل الحواس شأنها شأن غيرها من الظواهر والأساليب الخارجة عن المألوف، ففي بادئ الأمر لمْ تكنْ ظاهرة ذات مسمّى معين، حتّى تنبّه الباحثون إلى وجود تشكيل يخالف السياق المألوف للغة، فأخذوا بالبحث، وهذا أمر طبيعيّ يطابق ما جاء عند ابن عقيل: ما جاء على أصله لا يسأل عن علته، وما جاء مخالفاً لأصله يسأل عن علته[3]، ومن هنا أصبحتْ هذه الظاهرة موضع البحث، ثُم محاولة أطلاق مصطلح عليها، وحريٌّ بنا إلَّا نقفزَ إلى مرحلة اطلاق المصطلح متناسين من كان لهم الفضل في التنبيه إلى وجود هذا التشكيل اللغويّ الجديد، من خلال جمعهم لشواهد شعريّة من بين التراث العربيّ الضخم، تضمّنتْ صورٍ تراسليّة، فكان لتوالي شواهد التراسل سبباً في تنبيه من جاء بعدهم على وجود أسلوب غريب كرر الشعراء توظيفه في صورهم الشعرية، فمضوا قدماً في البحث عنه والتحريّ، ووضع اصطلاحات لتسميته.

تذكر المصادر[4] إنّ أوّل من قام بجمع شواهد شعريّة تضمنتْ صورٍ تراسليّة هو أبو بكر محمد بن داوود الأصبهاني (ت297)، ففي أحد أبواب كتاب(الزهرة) المسمى بـــ(من وفى له الحبيب هان عليه الرقيب)، أورد (واحد وأربعين) بيتاً شعرياً لشعراء من عصور مختلفة ، فكان (ستة عشر) شاهداً منها مبنيّ على تراسل الحواس.

وبعد الأصبهاني جاء السري الرفاء في القرن الرابع الهجري (ت 362هـــ)، إذْ ألف كتاباً كاملاً عن الحواس، اسماه(المحب والمحبوب والمشموم والمشروب)، وهو كتاب ضخم يحتوي على أربعة أجزاء، وكما هو واضح من عنوانه يعنى بإيراد شواهد شعريّة تتضمّن صور حسيّة، منها ما أوكلت الحاسة إلى مدركها، وأخرى تضمّنت أسلوب التراسل الحسيّ، من دون أنْ يطلقَ عليها مصطلح التراسل[5].

وفي النهاية حسبنا أنْ نقولَ أنّ (الاصبهاني والسري الرفاء) وإن لم يكونا على قصد في جمع صور التراسل، ولم يطلقا عليها مصطلحاً، إلّا إنّ لهما الفضل في تنبيه من جاء بعدهما على وجود ظاهرة في الشعر العربيّ، ليمضوا قُدماً في تتبعها والتحريّ عنها وإيضاحها، فكان ممن مضى قُدماً في هذا المجال هو عبد اللطيف البغداديّ، فـــفي نهاية القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع يتحدّث عبد اللطيف البغدادي (557 هـــ –1162م – 629هـــ– 1231م) عن التراسل الحسيّ، ونعثر على نصٍّ له[6]، يقول فيه:" كقولهم: صوت طويل وقصير، وأصله في السطوح المبصرة. وكقولهم: صوت طيّب ولذيذ وبشع وكريه، وأصله لحاسة

الذوق، وكقولهم: صوت خشن ورخيم وندٍ وليّن وشديد وحار وبارد وثقيل وخفيف، وأَصل هذا كله لحاسة اللمس، وكذلك قولهم مضرّس ومثّج وموشًّى ومدبّج ، وكلام له ماءٌ وعليه رونق ، وكلّه مستعار من مدركات البصر. ويقال: كلام حلو وعذب ونغمة كذلك. وقد ينقل إليه العامّ كحاسة الذوق الذي هو جنس لها أَو كالجنس، فيقال: ذقت الكلام وذقت النغم، وذلك إذا تأمَّلت فصوله الخفية أَو معانيه الغامضة. وقد يقال وزنت الكلام والنغم والصوت، وأَلفيته موزوناً، وذلك إذا أَمعنت في تمييز مطابقة الكلام لمعناه، أَو في تمييز فصول الصوت وتناسب النغمات، وأصل الوزن لحاسة اللّمس والبصر".[7]

من الواضح إنّ البغدادي تنبّه إلى وجود صياغة مختلفة عن المألوف، وهو وإن لمْ يعطِ مصطلحاً لتلك الظاهرة إلَّا إنّ له السبق في إيضاحها بشكل صريح، فلم يبقَ سوى تسميتها.

ثمُ تنقطع سلسلة تتبّعنا لمَنْ تناول ظاهرة التراسل الحسيّ بعض الشيء بفقدان كتاب (حديقة السحر)، الذي وقف مؤلفه (شهاب الخفاجي) عند هذا الفن، ندرك ذلك بتصريح منه في كتابه الآخر(ريحانة الألبا وزهرة الدنيا) عند إيراده لنماذج من صور التراسل الحسيّ، فيشيّر بالقول أنّه بيّن هذا النوع من البديع الغريب في كتاب(حديقة السحر)، وبذلك نجهل إن كان الخفاجي أطلق في كتابه(حديقة السحر) على ظاهرة التراسل مصطلحاً لتكون له الريادة في تسميته، أم أنّه اكتفى بجمع شواهد شعريّة تتضمّن صور تراسليّة، شأنه شأن الأصبهاني والسري الرفاء[8].

وفي القرن السادس الهجري جاء أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان، المعروف بـــ (ابن الصيرفي)، (ت 542هـــ)، واضعاً لظاهرة التراسل مصطلحاً في مؤلفه(الأفضليات)، إذ تذكر المصادر[9] أنه أوّل من أشار إلى نظرية تراسل الحواس، وألتقط لها نماذج تطبيقيّة من الشعر العربي الأصيل، ففي إحدى صفحات رسالة (منائح والقرائح) نجد عنواناً رئيساً: (في تناوب الأعضاء)[10] .

ومن هنا كان مصطلح (تناوب الأعضاء) أوّل مصطلح أطلق على ظاهرة تراسل الحواس.

بينما نجد في كتاب(فن الشعر) للدكتور إحسان عباس، مصطلحيّ (الخلط بين وظائف الحواس)، و(الفوضى في مدركات الحواس)[11].

وفي عام(1977م) يتحدث الدكتور محمّد فتوح في كتابه (الرمز والرمزية)[12] عن هذه الظاهرة وإمكان حدوثها في الصياغة الشعريّة، ونراه يلجأ إلى ترسيخ وإثبات ما ذهب إليه بالاعتماد على ما ساقه من نصوص هي آراء وشواهد لأتباع المدرسة الرمزية، ومنهم بودلير وبيتس، فيقول:" فإذا بالعطور والألوان والأصوات تتجاوب على مستوى الصياغة الشعرية مثلما تجاوبت عند((بودلير)) على مستوى الواقع الطبيعي، وإذا بمعطيات الحواس تتبادل فتتحوّل المسموعات إلى ألوان وتصير المشمومات أنغاماً وتصبح المرئيات عاطرة، بل إنّ المدركات ذاتها تغدو ((معنى)) مجرداً من ثقل المادة وكثافتها، فالعطر – فيما يرى

بودلير – سر تسفحه الزهور"[13]، فنص قوله "كثير من الزهور تسفح آسفة عطرها الناعم كسر"[14] فيوافق فتوح ما ذهبت اليه المدرسة الرمزية مصرحاً بذلك:" لعلّنا لا نعجب حين نرى بعض الرمزيّين يبدأ من هذه الحقيقة ليصل إلى أن مدركاً واحداً من مدركات إحدى الحواس يمكن أنْ يستقطب شتيتاً من مدركات الحواس الأخرى، وهو ما يقرره ((بيتس)) بقوله: "حين يكون اللون والصوت والشكل كل مع الآخر في وحدة موسيقية .. فإنّها جميعاً تصبح صوتاً واحداً، ولوناً واحداً، وشكلاً واحداً، وتثير انفعالاً يصدر عن مثيرات عديدة متميّزة، ولكنّه رغم ذلك انفعال واحد" [15]

وفي عام (1979م) يتحدّث الاستاذ الدكتور عناد غزوان عن نظرية تراسل الحواس، ويسوق شواهد شعرية، من ذلك قول الشريف الرضي:[16] (من الطويل)

إذ فـــاتَ شـــيء سَمعَهُ دَلَّ أنفَهُ وإن فاتَ عينَيه رأى بالمسامــع

ويعلق عليه قائلاً: " هو ذئب يسمع بأنفه! ويرى بإُذنيه! ... إن الذّئب فيها بلونه وحركته وحذره وجوعه لا يختلف عن أوصاف الذّئب في تجارب الشعراء الآخرين الذين سبقوا الشريف الرضي إلّا إنّ لوحة الشريف تنفرد بصورة فنيّة بارعة جسّدها البيت التاسع:

إذ فات شيء سمعه دلَّ أنفه وإن فات عينيه رأى بالمسامع

حين جعل الشاعر حواس ذئبه متوثّبة يقظة متحرّكة متّحدة بحاسة واحدة من شدّة الحذر والتوتر وعنفوان الجوع، فحاسّة الشم هي حاسّة السمع، وحاسّة السمع هي حاسّة البصر، فهو ذئب يرى بمسامعه"[17] لتصير "حواس الذّئب الجائع المختلفة حاسّة واحدة تتحرّك بحريّة وعفويّة نتيجة للموقف النفسيّ المتوتّر الذي كان يعاني منه ذئب الشريف حيث يتلاشى الحدّ الفاصل في الاختصاص بين الحواس"[18].

أمّا في العصر الحديث، فيتحدّث الدكتور محمد غنيمي هلال(1997م) عن تراسل الحواس[19] خلال حديثه عن المدرسة الرمزيّة، ومما دعت إليه، يقول:" يرى الرمزيون أنه – كي تتوافر الصفات الإيحائية للصورة – على الشاعر أنْ يلجأ إلى وسائل تعنى بها اللّغة الوجدانية، كي تقوى التعبيّر عما يستعصي التعبير عنه، ومن هذه الوسائل (تراسل حواس)".[20] فتراسل الحواس الذي أطلقه دكتور غنيمي، هو المصطلح العصريّ الذي عُرِفت به الظاهرة في وقتنا الحاضر.

وفي عام (1982م) يفرد الدكتور أحمد مختار في كتابه(اللّغة واللون)[21] فصلاً يسميّه (ألفاظ الألوان والتعبيرات اللغوية).

أمّا الدكتور علي عشري زايد[22]، فيقدّم تعريفاً للتراسل قائلاً: "وتراسل الحواس معناه وصف مدركات حاسة من الحواس بصفات مدركات حاسة أُخرى، فنعطي للأشياء التي ندركها بحاسة السمع صفات الأشياء التي

ندركها بحاسة البصر، ونصف الأشياء التي ندركها بحاسة الذوق بصفات الأشياء التي ندركها بحاسة الشم، وهكذا تصبح الأصوات ألواناً، والطعوم عطوراً"[23].

ونجد مصطلح " تَبادُل الحَواس (التراسل)"[24] عند عبد الإله الصائغ في كتابه (الصورة الفنية معياراً نقدياً)، يقول وتَبادُل الْحَواسّ يُعرف بأنّه " تعبير يدلّ على المُدْرَك الحِسيّ أو يَصف المدرك الحِسيّ الخاص بحاسَّة مُعيَّنة بلغة حاسَّةٍ أُخرى، مِثل إدراك الصوت أو وصفه بكونه مخْمَلِيَّاً أو دافئاً أو ثقيلاً أو حلواً، وكأن يُوْصَف دويّ النفير بأنه قِرْمِزِيّ".[25]

ويتحدث الدكتور مهدي صالح السامرائي عن ظاهرة تراسل الحواس حول حديثه عن التجربة الرمزية، ويرجع أحد أسباب الغموض في التجربة المجازيّة إلى تراسل الحواس، يقول:" ويكون التعقيد نتيجة لتراسل الحواس ... وتعرف الظاهرة أحياناً باسم (السماع الملون)"[26]

ومن الانجازات المهمّة هي محاولة الدكتور عبد الرحمن الوصيفي، لقد قدَّم في كتابه (تراسل الحواس في الشعر العربي) جهداً ملموساً، لقد أشارَ فيه إلى أوّل من رصد تبادل الحواس، وتابع خطى الذين جاءوا من قبله من القدماء وصولاً إلى العصر الحديث.

وفي عام(2010م)، برز الدكتور أمجد حميد عبد الله في كتابه(نظرية تراسل الحواس)، والذي قدّم فيه شيئاً جديداً لم يتطرق إليه أحد من قبل، واضعاً للتراسل نظرية، لها أصول وأنماط[27]، كما وقد تتبّع تطور المصطلح وتسمياته منذ ظهوره وصولاً إلى العصر الحديث وذلك على ضوء ثلاث آليات، يقول:[28] "ولمناقشة المصطلحات التي دوّنها العرب للإشارة إلى تراسل الحواس، رأيت من الضروري – بعد أن لم أجدْ فيما بين يدي من كتب المصطلحيّة حلّاً شافياً – أن أضعَ ثلاثة معايّير تمثّل تغطية لخط النمو لأيّ مصطلح، وهذه المعايّير هي:

1- المعيار اللّغوي ... 2- المعيار الدلالي... 3- المعيار التطبيقي.

كما تناول أنماط تراسل الحواس وفقاً لاعتبارين:

الأوّل: أنماط التراسل باعتبار الحواس، يتناول كل حاسة وتراسلها مع الحواس الأُخرى، فقدّم عشرين نمطاً من أنماط التراسل.

الثاني: أنماط التراسل باعتبار العناصر، يتناول العناصر المكونة للتراسل، وهي الحاسة المرسلة والمدرك/ المرسِل. وقناة التوصيل. والحاسة المرسَل إليها.

ثانياً: إسهامات الغرب في نشأة المصطلح وتطوره

تكمن اسهامات الغرب في ظاهرة تراسل الحواس في مساعدتهم على إنتشارها "ويرجع الفضل في انتشار تداوله إلى قصيدتين من النمط السونتو (قصيدة من 14 بيتا)، وهما المطابقات Correspondances لبودلير Charles Baudelaire و(الحروف الصائتة) Voyelles لأرثو رامبو Arthur Rimbaud(1854–1891)(مخطوطة سنة 1871) ، وإلى رواية ويسمانس Joris–Karlhuysmans عكس الإتجاه Arebours(1884) "[29]، فقد عدَّ بودلير في قصيدته تراسلات CorreSPondauces أن الروائح والألوان والأصوات تتجاوب في وحدة معتمّة عميقة رحيبة كاللّيل وكالضوء، ثُم يأتي بعد بودلير محاولة رامبو قصيدة (الأصوات المتحركة Voyelles) التي حول فيها الأصوات التي هي مدركات حاسة السمع إلى ألوان فأضفى عليها صفات مدركات حاسة البصر[30] فالخلط بين الحواس، مبدأ دعتْ إليه المدرسة الرمزية، وطبّقه أعلامها كما رأينا عند بودلير ورامبو، كما يطالعنا عند الرمزيّين تجاوب المعاني مع المحسوسات حتى لنظفر بألفاظ غريبة تثيّر الدهشة كـــ(الشمس المرة المذاق).[31]

فلا غرابة عندهم في استعمال تلك التعبيرات لأن الرمزيّون حاولوا "أنْ يصوروا ما يقع خارج حدود المعرفة، أي المتسامي Transcendental، وذلك عن طريق الاستعانة بالرموز التي بإمكانها – على حد زعمهم–((التعبير عما يستعصي على الوصف)). وفي معرض البحث عن وسائل خاصة بالتعبير غير المباشر عما هو ((متسام)) تلقّف الرمزيون الفكرة من إحدى سونيتات بودلير، هذه الفكرة التي تفيّد بوجود تماثلات معلومة Correspondances بين الأصوات، والألوان، والروائح، وهذه الفكرة التي تلقفها فيرلين والتي طورها بعد ذلك رامبو في سونيت ((الحروف الصوتية)) (حيث يجري الحديث عن ((لون)) كل صوت)". [32]

من هنا يمكننا القول أنْ تطورَ وازدهار ظاهرة تراسل الحواس كان على يد الرمزيّين، أمّا نتاجها والتنبيّه عليها، وإيجاد مصطلحاً لها، فكان من إسهامات العرب، ومن الجدير الإشارة إلى نصوص تراسليّة جاءت سابقة لكتابات الرمزيّين، وهي نصوص قرآنية، منها قوله تعالى:{يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.[33]وأيضاً، قوله تعالى:{ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }.[34]

أمّا الناظر في شعر شعراء المعلقات العشر يقف على نماذج شعريّة وظّف فيها أسلوب التراسل الحسيّ، فأسهم في تقديم صورة جماليّة ودلاليّة، لذا سوف نتناول تلك الصور بالبحث والتحليل.

ثالثاً: تراسل الحواس التحليل الفنّي للنصوص الشعرية الخاصّة بشعراء المعلقات العشر

نجد في دواوين شعراء المعلقات العشر صور حسيّة قائمة على أسلوب تراسل الحواس، لما لهذا الأسلوب من فاعلية، وقد تنوّعت صور التراسل، وفيما يلي بعض النماذج الواردة، نتناولها على وفق الترتيب الآتي:

1- التراسل البصري الشمي

فمن نماذج ما جاء عند شعراء المعلقات، ما نجده عند أمرئ القيس، يقول: [35] (من الطويل)

أَلَم تَرَياني كُلّما جِئتُ طارِقاً وَجَدتُ بِها طيباً وَإِن لَم تُطَيّبِ

في هذه الصورة نجد حاسة البصر قامتْ باستقطاب مدرك من شأن حاسة الشم إدراكه، فالشاعر لم يدرك عطر أم جندب بأنفه، إنّما أدركـــــه بعينه، ويبدو أنّ العاطفة والخيال كانا العامل وراء لجوء الشاعر إلى هذا الأسلوب.

2- التراسل الذوقيّ الشميّ

ومن نماذج التراسل الذوقي الشمي، ما نجده عند عنترة بن شداد، يقول:[36] (من المنسرح)

بَـــــردُ نَسيمِ الحِجازِ في السّحَرِ إِذا أَتاني بِريحِهِ العَطِرِ

أَلَذُ عِندي مِمّا حَوَتْهُ يَدي مِنَ الـــــلَآلي وَالمالِ وَالبدرِ

يطالعنا في هذه اللّوحة صورة حسيّة بُنيت على التراسل الذوقيّ الشميّ، فمن المعلوم أنّ رائحة العطور من مدركات حاسة الشم، لكنَّ تجربة الشاعر العاطفيّة المجابهة بالصدّ والحرمان، جعلته عطشاً لكلّ ما هو آتٍ من المحبوبة، ولمّا كانت حاسة الشم غير قادرة على تجسيّد مشهد سرور رويّ الشاعر من عطر المحبوبة، استعان بحاسة أخرى كانتْ أقدر على النقل الشعوري الصادق.

وشبيه بهذا النوع ما نجده عند الأعشى، يقول:[37] (من الخفيف)

حُلْوَةِ النّشْرِ والْبَدِيهَـــــةِ وَالْعِـــ ـــلاّتِ لاَ جَهْمَةٍ وَلا عُلْفُوفِ

في البيت المتقدّم يطالعنا تراسل (ذوقيّ شميّ)، فالأعشى يتذوّق رائحة صاحبته لا يشمّها، يبدو أن الشاعر قد وجد في ألفاظ حاسة الشم عجزاً عن أداء الشعور الذي أثاره أدراك عطر الموصوفة، فلجأ إلى استعمال صفة من صفات حاسة الذوق، وهي (الحلاوة) لنقل صورة مشابهة للواقع.

3- التراسل اللمسيّ السمعيّ

من صور التراسل اللمسي السمعي، ما جاء عند الأعشى، يقول:[38] (من الكامل)

صَـــنَـــعٌ بِـــلِيـــنِ حَـــدِيـــثِهَـــا فَـــدَنَـــتْ عُـــــرَى أَسْـــبَـــابِهَـــــا

في هذا البيت الشعري استعار الأعشى للحديث صفة من صفات المدركات اللمسيّة، وهي صفة(اللين)، فأحدث تراسلاً (لمسيّ سمعيّ)، وهذا ناتج عن قصورّ اللّغة المألوفة عن نقل احاسيس الشاعر المتوهجة بالحب على نحو دقيق، فالأعشى من فرط الوجد بصاحبته يستعير صفة من صفات الأشياء الملموسة– وهي الملمس الناعم اللّين، الذي يؤنس لامسه؛ لأنّ وروده على حاسة اللمس يكون ورود حسناً لطيفاً– لكن لا ينسبه إلى جسم ما، إنّما إلى حديث صاحبته؛ لتكون الصورة أقدر على نقل الأثر الذي تركه صوت صاحبته على نفسه.

ومن هذا النمط من التراسل يطالعنا قول امرؤ القيس:[39] (من الطويل)

وصِرْنَا إلى الحُسْنَى ورَقّ كلامُنا ورُضْتُ فذَلّتْ صَعْبَةٌ أيّ إذْلالِ

أحدث الشاعر في البيت المتقدم تراسل(لمسيّ سمعيّ)، فالكلام مدرك سمعي، لكنّ الشاعر استعار له صفة من صفات المدرك اللّمسي وهي صفة الرقّة، وبهذا التوظيف يكون الشاعر قد منح صورته قوّة الصدق والإيحاء، فكانتْ أقرب إلى المتلقي؛ لأن الرّقة صفة تُدرك بالاحتكاك المباشر، وإن مدى نعومتها معلومٌ غالباً، ومن هنا عُلِم مقدار التوافق بينهما.

أمّا عبيد بن الأبرص، فيسمعنا قوله:[40] (من الطويل)

تُرِيني آيَـــــةَ الإعْراضِ مِنْهَا، وَفَظَّتْ في المَقالَـــةِ بَعْدَ لِيـــنِ

في هذا البيت يقارن الشاعر بين حالتيّن أصابتا موصوفته وهما حالتيّ(الغلظ واللطف)، ويبدو أنّ الشاعر متعجباً لهذا التغيّير السلبيّ المفاجئ في سلوكها، ولأنّ ما حدث معه لم يكن مألوفاً، فهو لم يكتفِ بمألوف من سياق القول أيضاً، فيستعيّر صفة من صفات المدرك المسيّ، وهي(اللّين)، ويمنحها على مدرك سمعي، وهو(القول)، فيحدث تراسلاً (لمسيّ سمعيّ).

ومن هذا النمط من التراسل أيضاً، يسمعنا عمرو بن كلثوم قوله:[41] (من مجزوء الكامل)

يُبْـــــــــدي كَلاماً لَيِّناً عِنْدي وَيَحْقِـــرُ مُسْـتَـــسِـــرّاً

نطالع في البيت المتقدّم تراسل(لمسيّ سمعي)، إذ وصف الشاعر كلام المنافق حينما يكون أمامه باللّين، وحينما لا يكون في حضرته يبدي خلاف ذلك، ففي وصف الشاعرُ القولَ باللّين يضمر قصديّة ذمّ الواشي

وتحقيّره؛ لأنّه كلّما بالغ في تحسيّن الكلام حينما يكون في حضرته على وجه الخصوص، يكون قد بالغ في وصفه بالنفاق، ومن ثُم النفور منه، فذمّه وتحقيّره.

من التراسل اللمسيّ السمعي، أيضاً قول امرئ القيس:[42] (من الطويل)

فَلَمّا تَنازَعْنا الحَديثَ وَأَسْمَحَتْ هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذِي شَمارِيخَ مَيَّالِ

على حد تعبيّر الشاعر في قوله: (تنازعنا الحديث) تتّضح نسبة تناغمه مع الموصفة، وأنسته بحديّثها؛ ذلك أنّه أختار لفظة (النزع) التي تتناسب مع كلمة الخمار، أو الحبال، أو الدلاء، أو غيرها من الأشياء الماديّة التي يمكننا إدراكها عبر الاحتكاك المباشر.

فالشاعر أستعار(للحديث) وهو مدرك صوتي، صفة من صفات المدركات اللمسيّة، ومن هنا يُعلمنا عن مسافة القرب التي وصل إليها مع الحبيبة.

4- التراسل الذوقيّ السمعيّ

من صور التراسل الذوقي السمعي، ما جاء عند زهير بن أبي سلمى:[43] (من الطويل)

وتُصْبِي الحَلِيمَ ، بالحَديثِ، يَلَذُّهُ وأَصواتِ حَلْيٍ، أو تَحَرُّكِ دُمْلُجِ

حصل في النص المتقدّم تراسل(ذوقيّ سمعيّ)؛ لأن الشاعر جعل من القول(الحديث) مدركاً يُذاق، وفي هذا دلالة على عمق تركيّز السامع مع المتحدِّث، وشدّة الإعجاب بقوله، ومما لا شك فيه إنّ هذا الشدّ الذهنيّ إنّما هو نتاج عاطفة يكنّها السامع إلى المتحدِّث، عاطفة جعلته يشعر بإحساس تذوقه طعماً حلواً.

5- التراسل السمعيّ البصري

من نماذج التراسل السمعيّ البصري، يطالعنا قول طرفة بن العبد، يقول:[44] (من الطويل)

رأيتُ بني غبراءَ لا يُنكِرونَنـــــــــــي ولا أهلُ هَذاكَ الطُرافِ المُمَدَّدِ

الانكار غالباً ما يكون بالنطق من خلال التساؤل عمّن يكون الشخص؟ عمداً، تقليلاً من شأنه، غير أنّ قوم الشاعر لم يفعلوا ذلك، لذا فهو يتباهى بذيوع اسمه، ويضمر قوله معنى، وهو سابق معروفه على الناس حتّى ذاع اسمه وعُرِف، فالفقيّر يعرفه قبل الغني، وكلاهما لا ينكرونهُ بسؤالهم: من هذا؟ من هنا نقول إن الإنكار يمكن عدّه في البيت المتقدم مدركاً سمعيّاً، غير أنّ الشاعر وظّف حاسة البصر لاستقطابه، بقوله: (رأيتُ) ذلك "لأن المعرفة عن طريق المعاينة والمشاهدة أكدّ منها عن طريق السماع؛ ولهذا قالوا: ليس الخبر كالمعاينة"[45]، أو كما أورد أحد الشعراء قوله:[46]

يا بْنَ الكرام ألا تدْنو فتبصرَ ما قد حدَّثوك فما راءٍ كمنْ سَمِعا

6- التراسل اللمسيّ الذوقيّ

ومما ورد من صور التراسل اللسمي الذوقي، قول عبيد بن الأبرص:[47] (من الطويل)

وَأَلْهاهُ شُرْبٌ ناعِمٌ وَقُرَاقِرٌ، وَأَعيْاهُ ثأرٌ كانَ يَطلُبُ في حُجْرِ

يطالعنا في البيت المتقدم تراسل(لمسيّ ذوقيّ)، فللشراب من الصفات التي توافقه، مثل الحموضة والحلاوة ،غير أنّنا لم نجدْ وصفاً يناسب الموصوف ويبيّن لنا إن كان الشراب يُلذُّ به أو يُنفر منه، وعلى الرغم من ذلك فإن مذاقه قد تحدّد، ذلك بما أوحت إليه صفة النعومة، وهنا عمد الشاعر إلى لغة جديّدة منزاحة عن الأُطر الموضوعة، والقواعد المتعارفة، واللّغة المترسخة.

7- التراسل البصريّ السمعي

ومن أنماط التراسل البصري السمعي، ما نجده عند عبيد بن الأبرص:[48] (من البسيط)

تَرَى لَهُنَ عَزِفاً في مَوَاثِبِهِ إذا هُمُ لَبِثُوا لِـلْماء وافتَرَطُوا

يطالعنا تراسل (بصريّ سمعي)، ذلك إن الشاعر استعار الرؤية لإدراك صوت العزيف، وهذا خارج عن المألوف، ولا يمكن له أنْ يكونَ خارج إطار اللّغة الشعرية.

8- التراسل البصري الذوقيّ

من نماذج التراسل البصري الذوقي، ما نجده عند الأعشى، يقول:[49] (من البسيط)

لَوْ أُطعِمُوا المَنّ وَالسّلْوَى مَكَانَهُمُ مَا أَبْصَرَ النَّاسُ طُعْمَاً فِيهِمُ نَجَعَا

يطالعنا في عجز البيت المتقدّم لفظة من ألفاظ المدرك بصري، وهي(أبصر)، لكنّ الشاعر عدل عن تعيّين صفة من صفات مدركاتها، منزاحاً إلى المدرك البصري، مشكلاً تراسلاً بصرياً ذوقياً . ومن مثل هذا النمط، للأعشى أيضاً:[50] (من الطويل)

رَعَى الرَّوْضَ وَالْوَسْمِيَّ حَتَّى كَأَنَّمَا يَرَى بِيَبِيس الدَّوِّ إِمْرَارَ عَلْقَمِ

في عتبة عجز البيت المتقدّم يطالعنا لفظة(يرى)، فمن المتوقّع أن يليَها مشهد بصري واصف لما يرى، لكنّ الشاعر انزاح عن المتوقّع، واستعار مدركاً ذوقيّ، وهو(علقم)، ليشكّل صورة مبتكرة بليغة.

الخاتمة

1- جاء أسلوب تراسل الحواس عند شعراء المعلقات عفو الخاطر من دون تصنّع أو تكلّف.
2- شكّلت صور التراسل الحسيّ في دواوين أصحاب المعلقات العشرة نسب ورود ضئيلة.
3- يمكن عدّ الخيال العامل الأساس في انتاج صورٍ تراسليّة مبتكرة.
4- شكّل نمط التراسل اللمسي حضوراً مكثفاً في دواوين أصحاب المعلقات العشر، مقارنة مع أنماط التراسل الأخرى الواردة في دواوينهم، ولعلّ في كيفيّة ادارك المحسوس الكائنة عبر الاحتكاك المباشر الدور في ذلك.
5- شكّل التراسل السمعي حضوراً ضئيلاً في دواوين أصحاب المعلقات العشرة.
6- الغزل من أبرز موضوعات صور التراسل الواردة في دواوين أصحاب المعلقات العشر؛ لما له من دور في شحذ خيال المبدع.
7- لم نظفرْ بجميع أنماط التراسل الحسي في دواوين أصحاب المعلقات العشر، فمما غاب حضوره مثلاً التراسل الشمي:(البصريّ، السمعيّ، اللمسيّ، الذوقيّ)، والتراسل الذوقيّ اللمسيّ، وغيرهما.

هوامش البحث

(1) لسان العرب، المجلد الثالث، ج19، ، دار المعارف، القاهرة، مادة(رسل).

(2) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، 1997م، ص395.

(3) ينظر: شرح ابن عقيل، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث نشر وتوزيع، القاهرة، دار مصر للطباعة، ط20، 1400هـ-1980م، ج1، ص37.

(4) تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، عبد الرحمن الوصيفي ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1424ه-2003م، ص18 ،17.

(5) ينظر: المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، السريّ بن أحمد الرفّاء، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1407هـ- 1986م، ينظر: تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص23 ، 24.

(6) ينظر: تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص37.

(7) مقالتان في الحواس ومسائل طبيعيّة، عبد اللطيف البغدادي، سلسلة تصدرها وزارة الاعلام، الكويت، 1392هـ- 1972م، ص87 – 88.

(8) ينظر: تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص38.

(9) نظرية تراسل الحواس، امجد حميد، الناشر: المركز العلمي العراقي، بغداد– العراق،1431ه– 2010م، ط1، ص44

(10) الأفضليات، أبو القاسم علي بن منجبّ بن سليمان المعروف بابن الصيرفي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1402هـ– 1982م، ص226.

(11) ينظر: فن الشعر، إحسان عباس، دار الشروق، عمان– الأردن، ط4، 1987م، ص58.

(12) ينظر: تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص47

(13) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1984، ص134.

(14) بودلَير، جان بول سارتر، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، ط1، 1965م، ص194.

(15) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص134.

(16) ديوان الشريف الرضي، الشريف الرضي، منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، ط1، ايران، 1406هـ، ج1، ص661.

(17) مجلة المورد، في حديث مع د.عناد غزوان، مجلد 8، ربيع 1979، العدد1، ص 98.

(18) المصدر نفسه، ص 100.

(19) ينظر: تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص 47.

(20) النقد الأدبي الحديث، ص395.

(21) اللغة واللون، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1982، ص69.

(22) ينظر: تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص51.

(23) عن بناء القصيدة العربية، علي عشري زايد، الناشر: مكتبة ابن سينا، مصر، ط4، 1423ه– 2002م، ص 78

(24) الصورة الفنية معياراً نقدياً، عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987م، ص 415.

(25) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، لبنان- بيروت، ط2، 1984م، ص148

(26) المجاز في البلاغة العربية، مهدي صالح السامرائي، دار الدعوة، سوريا، حماة، ط1، 1975م، ص231.

(27) مقابلة شخصية، 2017م. جامعة كربلاء، كلية العلوم الإسلامية.

(28) ينظر: نظرية تراسل الحواس، ص43 – 169.

(29) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 148

(30) ينظر : عن بناء القصيدة العربية، ص78

(31) ينظر: الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، ص135. فن الشعر، ص58

(32) المذاهب الأدبية، جميل نصيف التكريتي، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق- بغداد، ط1، 1990، ص311.

(33) سورة الزخرف، آية: 71

(34) سورة طه، آية: 44

(35) ديوان امرؤ القيس، ص41

(36) ديوان عنترة العبسي، مطبعة الآداب، بيروت، 1893، ط4، بنفقة خليل الخوري، ص37، 38.

(37) ديوان الأعشى الكبير، تح: د. محمود إبراهيم محمد الرضواني، الناشر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة- قطر، ط1، 2010م، ج1، ص199.

(38) الديوان الأعشى، ج 1، ص120

(39) ديوان امرؤ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط5،1119، ص32.

(40) ديوان عبيد بن الأبرص، شرح: أشرف أحمد عَدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1414هـ- 1994م، ص122.

(41) ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق: اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1416هـ- 1996م، ص95.

(42) ديوان امرؤ القيس، ص 32.

(43) ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1408هـ–1988م، ص33.

(44) ديوان طرفة بن العبد، تح: درية الخطيب، لطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت– لبنان، ط2، 2000، ص45.

(45) اللغة والحواس، د. محمد كشاش، الدار النموذجية، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ، ط1، 1422هـ - 2001م، ص103.

(46) شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النّحويَّة، خرج الشواهد وصنفها وشرح: محمد محمد حسن شُرّاب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427هـ– 2007م، ج2، ص63.

(47) ديوان عبيد بن الأبرص، ص 62.

(48) المصدر نفسه، ص80.

(49) ديوان الأعشى، ج1، ص293

(50) المصدر نفسه،ج1، ص314.

مراجع البحث ومصادره

أوّلاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر والمراجع

1- الأفضليات، أبو القاسم علي بن منجبّ بن سليمان المعروف بابن الصيرفي، تح د. وليد القصاب، د. عبد العزيز المانع، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1402هـ– 1982م.
2- بودلير، جان بول سارتر، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت،ط1، 1965م.
3- تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، عبد الرحمن الوصيفي ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1424ه-2003م.
4- ديوان الأعشى الكبير، تح: د.محمود إبراهيم محمد الضرواني، الناشر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة- قطر، ط1، 2010م.
5- ديوان الشريف الرضي، الشريف الرضي، منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، ط1، ايران، 1406هـ.

6- ديوان أمرؤ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط1119،5.
7- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1408هـ-1988م.
8- ديوان طرفة بن العبد، تح: درية الخطيب، لطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ط2، 2000.
9- ديوان عبيد بن الأبرص، شرح: أشرف أحمد عَدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1414هـ-1994م.
10- ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق: اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1416هـ- 1996م.
11- ديوان عنترة العبسي، مطبعة الآداب، بيروت، 1893، ط4، بنفقة خليل الخوري.
12- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1984.
13- شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمداني، دار التراث، القاهرة، ط20، 1400هـ- 1980م.
14- شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النّحويَّة، خرج الشواهد وصنفها وشرح: محمد محمد حسن شُرّاب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427هـ- 2007م.
15- الصورة السمعية في شعر ما قبل الإسلام، د. صاحب خليل إسماعيل، من منشورات اتحاد الكتّاب العربي، 2000.
16- الصورة الفنية معياراً نقدياً، عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987م.
17- عن بناء القصيدة العربية، علي عشري زايد، الناشر: مكتبة ابن سينا، مصر، ط4، 1423ه- 2002م.
18- فن الشعر، إحسان عباس، دار الشروق، عمان- الأردن، ط4، 1987م.
19- لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، 1119.
20- اللغة والحواس، د. محمد كشاش، الدار النموذجية، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ، ط1، 1422هـ - 2001م.
21- اللغة واللون، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1982.
22- المجاز في البلاغة العربية، مهدي صالح السامرائي، دار الدعوة، سوريا، حماة، ط1، 1975م.

23- المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، السريّ بن أحمد الرفّاء، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1407هـ- 1986م.
24- المذاهب الأدبية، جميل نصيف التكريتي، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق- بغداد، ط1، 1990.
25- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، لبنان- بيروت، ط2، 1984م.
26- مقالتان في الحواس ومسائل طبيعيّة، عبد اللطيف البغدادي، سلسلة تصدرها وزارة الاعلام، الكويت، 1392هـ- 1972م.
27- نظرية تراسل الحواس. الأصول- الأنماط- الإجراء، د.أمجد حميد عبد الله، دار النشر، ط1، 1431هـ- 2010م.
28- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، 1997م.

ثالثاً: المجلات والدوريات

1- مجلة المورد، في حديث مع د.عناد غزوان، مجلد 8، ربيع 1979، ع1.

رابعاً: المقابلات الشخصية

1- مقابلة شخصية مع الدكتور أمجد حميد عبد الله ، جامعة كربلاء، كلية العلوم الإسلامية- قسم اللغة العربية، 2017م.